

دور الترجمة في حفظ اللغات في ظل العولمة

ليلي فاسي
كلية الآداب واللغات
قسم الترجمة

ملخص

يهدف هذه المقالة إلى تسليط الضوء على حال لغات العالم وكيف تقاوم هذه الأخيرة من أجل الاستمرار في ظل هيمنة اللغة الإنجليزية وعولمة الثقافة. نحاول أن نبين كيف يلعب كل من الإقتصاد والتعليم دورا مهما في تقدم اللغات. كما نبين كيف تسهم الترجمة في حفظ التراث الثقافي.

كلمات مفتاحية: إرث ثقافي، تعليم، ترجمة، عولمة

Abstract

This paper focuses on the way world languages struggle to survive under cultural globalization, we try to explain through this paper the role education and translation play in preserving cultural heritage.

Key words; economy, cultural heritage, education, translation, globalization

مقدمة

تقرّد الإنسان منذ بدء الخليقة بقابليته للنطق والكلام، الشيء الذي ميّزه عن الكائنات الحيّة الأخرى. لذا اعتبرت اللغة أهم مقومات الحياة الفكرية والاجتماعية لأنها تتطور بتطور حياة متكلميها. كما أن اللغة تميّز البشر بعضهم عن بعض، وذلك لأن كل قوم لهم لغتهم الخاصة بهم، مما يجعل الإنسان يعيش في عالم تسوده اللغات وليس اللغة. وكون الشعوب تقطن قرب بعضها البعض فإن هذا فرض عليها الإحتكاك فيما بينها ومن ثم الإتصال اللغوي. يشهد عالمنا اليوم انقساما واضحا لدرجة تمكّتنا من الحديث عن عالمين وليس عالم واحد، عالمين مختلفي المعالم، عالم متقدم جدا وعالم متخلف جدا، فبقدر ما توصل إليه العالم المتقدم من ازدهار وتطور علمي وتقني على قدر ما انغمس العالم المتخلف في تخلفه وتدنى مستوى التكنولوجيا التي تخلق مجالات متعددة يمكن للغة أن تستمر من خلالها. إذ التّألق العلمي يعني بالضرورة التّألق اللّغوي. إن التقدم الذي يشهده عالم الشمال وأمريكا على وجه الخصوص أدّى بشكل

تدريجياً إلى هيمنة الثقافة الأنكلوسكسونية على ثقافات العالم الأخرى، هذه الثقافة التي تقود العالم حالياً وتحقق إنجازات علمية ومادية كبيرة في الوقت الذي تبقى فيه الثقافات الأخرى مكتوفة الأيدي أمام هذا التدفق العلمي والتكنولوجي خاصة في مجال الاتصال والمعلومات والأفكار. وبناءً على ماسبق نتبادر لأذهاننا الإشكالية الآتية:

إلى أي مدى يمكن للاقتصاد والتعليم والترجمة أن يسهموا في حفظ اللغة والثقافة في ظل هيمنة الثقافة الأنكلوسكسونية؟

من المتعارف عليه أن التقدم والتميز ليس بالعملية التلقائية وإنما هو نتيجة مسار طويل ومستمر من العمل الدؤوب لذلك إن وجدنا بعض اللغات قد تفوقت على أخرى فإن هذا لأسباب وعوامل متداخلة على رأسها العامل الاقتصادي والتكنولوجي. فكيف يكون ذلك؟

1. دور العامل الاقتصادي والتكنولوجي في تقدم اللغة :

كثيراً ما ينسب انتشار لغة ما إلى نسبة النمو الديمغرافي لجماعة تلك اللغة من حيث أن أفراد الجماعة اللغوية يتكاثرون ويضمنون الاستمرارية للغة عبر الأجيال. في حين أنه ليس العامل الحاسم في الأمر وإلا لكانت اللغة الصينية هي اللغة العالمية الأولى لأن سكان الصين يشكلون ربع سكان العالم تقريباً، ولاحتلت اللغة الهندية المكانة الثانية لأن سكان الهند يزيد عددهم عن البليون نسمة (مكانة اللغة العربية بين اللغات

العالمية، 2001). ومع ذلك بقيت هذه اللغات حبيسة حدود بلدانها لأن هذه الأخيرة تشهد ركوداً اقتصادياً وتكنولوجياً منع لغاتها من التسرب خارج حدودها عكس اللغة الإنكليزية التي تشهد بلدانها نمواً ديمغرافياً ضئيلاً جداً مقارنة بالهند والصين : 0,1% في بريطانيا و 1% في أمريكا. (أحمد عوض، 2001). غير أننا نجد اللغة الإنكليزية تنتشر في كل مناطق العالم ومنه لا يظهر النمو الديمغرافي كضرورة لانتشار اللغة خارج حدود الجماعة التي تتكلمها في حين لم يرافقه نمواً اقتصادياً متكافئاً، بل على العكس قد يشكل عائناً أمام التقدم الاقتصادي والتكنولوجي لتلك البلدان. ومن هذا المنطلق وكبداية يمكن أن نربط انتشار اللغة واتساع نطاقاتها بقوة النشاط الاقتصادي لمكلميها ولتوضيح الفكرة دعنا نأخذ المثال التالي :

يعرض رنفرو (Renfrew) نظرية ترى أن اللغة الهندو أوروبية الأولى قد أتت من هضبة الأناضول والتي انتشرت منها بشكل سلمي في الألفية السادسة ق.م إلى بلاد اليونان والقارة الأوربية نتيجة للزراعة الدائمة التي جعلت النمو الديمغرافي ممكنا بصفة أكبر مما كان عليه في ظل الحياة على أساس الصيد والالتقاط. (عوض أحمد، 2001 : 237).

ومن منطلق هذه النظرية فإن التوسع في الزراعة لم يؤد فقط إلى انتشار نمط جديد من الحياة الاقتصادية بل أيضا إلى انتشار الناس واللغة التي يتكلمونها من حيث أنهم ينتقلون بصفة تدريجية من أجل البحث على أراض أكثر قابلية للزراعة تمكنهم من إعالة أعدادهم المتنامية، الشيء الذي أدى إلى انتشار اللغة خارج جماعتهم الأصلية. (أنظر المصدر ذاته). بالإضافة إلى الزراعة يظهر النشاط التجاري كعامل مهم في انتشار لغة ما وذلك من خلال عمليات التبادل التجاري التي تفرض على أحد الطرفين تكلم لغة الطرف الآخر. حيث أدى تطوّر الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية إلى اتساع دائرة المبادلات التجارية، كما زاد تطوّر وسائل النقل والاتصال من سهولة العملية. وبما أن العالم منقسم إلى شمال متقدّم وجنوب متخلف فإن هذا جعل من عملية التبادل التجاري غير متكافئة تماما. ويتحدث كريستال دافيد في هذا الصدد عن المجتمع المستهلك (Consumer society)، هذا المجتمع الذي يجد نوعا جديدا من المنتجات الجديدة تنهمر عليه ونمطا معيشيا آخر لم يعهده من خلال تدفق الإشهار المرافق للمنتج والذي يبيث في الإذاعة والتلفزيون. وكنتيجة لهذا سيرى هذا المجتمع مظاهر التخلف والتقهقر في حياته، وسيسعى بالتالي إلى تعلم اللغة الوافدة من أجل بلوغ هذا المستوى الذي يصدره المجتمع المتقدم اقتصاديا. ويبدأ في فقدان خصوصياته شيئا فشيئا. وأول الجوانب تأثرا هي اللغة مما سيسمح للغة الوافدة بالانتشار على حساب اللغة الموجودة من قبل لأنها في هذه الحالة ستظهر على أنها سمة من سمات التخلف الاقتصادي والثقافي. (Crystal David, 1999).

علاوة على ذلك فإن للتقدم في مجال التكنولوجيا الأثر البالغ على الصناعة وبالتالي اللغة التي تعبر عن هذا التقدم ومختلف مظاهره. حيث أدى التصنيع الذي قاده في الجزر البريطانية مجموعة من رؤساء المؤسسات والمهندسين والتقنيين والناطقين باللغة الإنكليزية إلى جذب الناس إلى المناطق أين تهيمن اللغة الإنكليزية. ففي الغال مثلا غير أكثر من نصف سكان المنطقة لغتهم لتبني اللغة الإنكليزية خلال أقل من جيل كنتيجة

لتطور التصنيع والتعليم، والذي كانت نتيجته تحسن مستوى المعيشة. (Mackey Francis William, 1976)

بالإضافة إلى كل ما سبق فإن التصنيع يعني إنشاء المراكز الصناعية سواء داخل أو خارج إقليم اللغة مما سيشكل مغناطيسا يجذب إليه أعدادا ضخمة من متحدثي لغة أخرى من الخارج فنجدهم ينتقلون سعيا وراء الحوافز التي يوفرها هذا النمط الاقتصادي. و أول شيء يتأثر لدى الانتقال هي اللغة لأن انتقال الناس يعني اختلاطهم بمتكلمي لغة جديدة مما سيفرض عليهم تعلّم تلك اللغة قصد الاندماج في الجماعة الجديدة ومن ثم سيسعون لتعليمها لأولادهم وبالتالي سيضمنون انتشار تلك اللغة من جهة وانكماش مجالات استعمال لغتهم من جهة أخرى. ولتوضيح الفكرة أكثر دعنا نتأمل المثال التالي والمتعلق باللغة البريتونية. فعلى الرغم من قمع فرنسا لهذه اللغة إلا أنه وحتى بداية القرن 20 كان لا يزال 90% من السكان يتكلمون اللغة البريتونية (Breton) في منطقة باس بريتاني. لكن مع دخول الصناعة إلى منطقة شمال فرنسا، انتشرت اللغة الفرنسية على حساب اللغة البريتونية (Breton) وذلك بسبب انتقال سكان الريف البريتونيون تاركين الفلاحة متجهين إلى الصناعة متخليين عن لغتهم ساعين إلى تعلّم اللغة الفرنسية. وحتى عندما وصل التصنيع إلى بريتاني ذاتها فإنها لم تستفد من العدد الكبير من المهاجرين إليها في المجال اللغوي لأنهم وبكل بساطة لم يسعوا لتعلّم اللغة البريتونية (Betron) بل اتجهوا إلى تعلّم اللغة الفرنسية وكان حضورهم بمثابة التعزيز لها، واستفادتهم من الصناعة شكلا من أشكال انتشار اللغة. (أحمد عوض، 2001).

ويرى كريستال دافيد في هذا الصدد على غرار قرونوبل وفالي (Grenoble and Whaley) أن الاقتصاد هو أقوى العوامل المؤثرة في مصير لغة ما على الإطلاق لأنه وبكل بساطة تتطلب ترقية المكانة الاجتماعية والسياسية للغة أموالا كبيرة، ولن تتوفر هذه الأموال إلا في وضع اقتصادي مزدهر. ولقد أورد مثال عن اللغة الكتالونية التي ازدهرت وتعرّز استعمالها في كتالونيا وفي كل المناطق الناطقة بهذه اللغة بسبب اكتشاف النفط في المنطقة والذي ساعد على تقدّم الصناعة هناك وحفّز الناس على استعمال لغتهم. (Crystal David, 1999 : 132).

2. التعليم :

قد تأكد بعد عشرينات من البحث في اللسانيات التربوية أهمية المدرسة في ترسيخ مكانة لغة ما في جماعة تلك اللغة كبدائية ومن ثم خارج تلك الجماعة إذا توافقت مع عوامل أخرى بطبيعة الحال ويرى كريستال دافيد - وإن تعلق الأمر بلغات أقلية إلا أننا بالإمكان أن نطبقه على أية لغة مهما كانت حالتها- أن المدرسة توفر الفرص للمتكلمين لاستعمال لغتهم وما يقصد بالإستعمال في هذا الصدد هو تكلم اللّغة وسماع الآخرين يتكلمونها. كما أن المدرسة ومن خلال البرامج التعليمية ستستدرج المتعلّم شيئاً فشيئاً إلى العوامل التي جعلت من لغة ما مهيمنة ومن لغته متراجعة ومتدهورة، مما سيضعف وعيه ومعارفه وسيزود ثقته بنفسه وبإمكانية دفاعه عن لغته إن تطلّب الأمر ذلك. (Crystal David, 1999 : 137)

ومع ذلك قد تكون المدرسة مقبرة للغة إذا كرّست هذه المدرسة لتعليم لغة أجنبية على حساب اللّغة المحلية وهذا ما حدث مرارا وتكرارا خلال مختلف الفترات الإستعمارية التي شهدتها بعض مناطق العالم، وعلى سبيل الذكر : قمع القوات الإستعمارية الفرنسية للغة (Wolof) بالسنگال والتي أخذت مكانتها اللّغة الفرنسية. وقد كانت البداية بتكوين نخبة صغيرة باللّغة الفرنسية تكون قادرة على تكميل مهام السلطات الدينية والاستعمارية داخل العائلات والقبائل وأول مدرسة أنشأت في السنگال هي في سان لويس (Saint Louis)، وقد بدأت في تعليم اللّغة الفرنسية عن طريق الترجمة وذلك بمساعدة الأهالي على التعبير عن أفكارهم كتابيا في لغتهم ثم ترجمة ما كتبوه إلى اللغة الفرنسية لكن سرعان ما أهملت هذه الطريقة لأنها كانت تضمن تكويننا في لغة (Wolof) إلى جانب اللغة الفرنسية مما أثار مشاكل عديدة للسلطات الإستعمارية التي سعت إلى إقصاء لغة (Wolof) كلياً مكرّسة المدرسة لتعليم اللّغة الفرنسية فوجد السنگاليون أنفسهم مجبرين على تعلّم لغة غير لغتهم ومفاهيم وقيم لم تكن تتناسب مع مجتمعهم وحياتهم، الشيء الذي أدى إلى تراجع اللّغة المحليّة واقتصارها على المحيط العائلي فقط. (Pieoche Jacqueline et Marchello-Nizia Christiane, 1998 : 91-92)

وقد عرفت اللّغة العربية في الجزائر نفس المصير خلال استعمار فرنسا لها إذ أصدرت هذه الأخيرة أمرا في 1830/09/07 يقضي بوضع اليد على الأوقاف الإسلامية، التي كان التعليم يعتمد عليها اعتمادا كلياً، مستعملة دخل تلك الأوقاف في أغراض غير التربية والتعليم. فانخفض عدد المتعلمين وانحصر التعليم على بعض الزوايا والكتاتيب. كما كان البرنامج في المدرسة فرنسيا 100% في المرحلة الابتدائية و99% في المرحلتين الثانوية والتعليم العالي.

ويبدو جليًا من خلال هذا أن إقصاء اللّغة العربية ابتداءً من المرحلة الابتدائية كان بمثابة الخطوة الأولى لإدماج الجزائريين في اللّغة والثقافة الفرنسييتين. بالإضافة إلى ذلك فإن اللّغة الفرنسية أصبحت لغة فئة قليلة من المجتمع واقتصرت اللّغة العربية على طبقة الشعب الكادح. وبالتالي اهتزت مكانتها وأصبحت علامة من علامات الفقر والانتماء إلى الطبقة الفقيرة التي لم تتح لها فرصة التعلّم باللّغة الفرنسية. وكانت نتيجة إجراءات القمع المتواصل الممارسة على اللّغة العربية عن طريق التعليم أن تقلّصت مجالات استعمالها حتى بعد استقلال الجزائر. (تركي رابح، 1969 : 128-132)

2. دور الترجمة في حفظ اللغات:

تلعب الترجمة على غرار الاقتصاد والتعليم دوراً أساسياً في حفظ الإرث الثقافي وذلك من خلال ترجمة أهم الإنتاجات الفكرية والأدبية للغة والتي تمنح الآخر الفرصة للتعرف على غيره وأن يعي ويعلم بوجود لغات وثقافات أخرى وربما يسهم في الحفاظ عليها. فكيف يكون ذلك؟

ليست اللغة مظهراً من مظاهر الثقافة بل هي ركيزة تقوم عليها الثقافة وإذا أردنا التعرف على أمة ما فنحن بحاجة للنظر في لغتها. وعليه لا يمكن فصل مفهوم الهوية عن اللغة فالهوية هي التي تجمع شعباً ما وتجعل أفراده يتقاسمون نفس العادات والتقاليد وتجعل منهم مختلفين ومتميزين عن الشعوب الأخرى فقط لأنهم يتكلمون لغة مختلفة و يلبسون لباساً مختلفاً ولهم معتقدات مختلفة و طقوس مختلفة، ولن نجد وسيلة أحسن من اللغة للتعبير عن كل هذا ثم الترجمة التي تنقل كل هذا الإرث إلى لغات أخرى. والترجمة تدفعنا للاهتمام بالآخر لأنها بوابة ندخل من خلالها إلى عوالم أخرى وتمهد لنا الطريق لاكتشاف تراث وثقافات الآخرين لذا يجب أن لا ننغلق ونتوقع في لغة واحدة فيتعلم غيرنا لغتنا ونحرم نحن من تعلم لغتهم، كما أننا سنريح الكثير بإطلاعنا على آراء جديدة وحقائق جديدة، فالعالم الذي نعيش فيه ليس إلا فسيفساء من الآراء واللغات إذ ضاعت منه لغة ضاعت قطعة من الفسيفساء وتشوه جمالها. ولتوضيح أهمية الترجمة نأخذ المثال التالي : إذا سافر أحدنا إلى بلد ما ناطق بغير لغته فكيف سيتعامل مع أهله، كيف سيقضي حاجياته، سيحس حتماً بالغربة والضياع وكأنه طفل صغير تاه عن أمه والعكس صحيح، فمن يطلع على لغات الآخرين سيتعلم تاريخاً آخر وثقافة غير ثقافته وفناً غير الفن الذي تعود عليه في لغته. وبالتالي لن يكون بمقدور الفرد التحصل على كل هذا دون اللجوء إلى الترجمة، وقد يكون صعباً على الشعوب التي تنحدر من أمم أحادية اللغة أن تستوعب الأمر لأنه في اعتقاد تلك الشعوب أن على الآخرين تعلم لغتها وليس العكس. وهذا ليس من الصواب لأن الشعوب تريح الكثير بتعلمها لغات جديدة

لذا يجب اغتنام الفرص الكثيرة التي تمنحنا إياها اللغات ونضع جانبا كل الاعتبارات السياسية والاقتصادية التي تقف دائما حاجزا بين الثقافات فلماذا إذن لا نكسر هذه الحواجز وننطلق في فضاء اللغات الواسع ؟ ولماذا علينا أن نقلق من وجود لغات كثيرة في العالم ؟ ونسعى أحيانا لإزاحتها بطريقة أو بأخرى.

خاتمة

بناء على ماسبق يظهر جليا أن اللغة لا تستمر إلا بتظافر جهود متكلميها في كل الميادين، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن نغفل أهمية الانفتاح على الآخر وعدم التعصب للغة وثقافة واحدة ومنه أهمية الترجمة في احتكاك اللغات والثقافات. كما يجب تطوير التعليم بكل تخصصاته وهياكله والدفع بعجلة الاقتصاد حتى تسهم كل هذه العوامل مشتركة في حفظ اللغة وضمان استمراريتها.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- عوض أحمد: اللغة والاقتصاد، عالم المعرفة، الكويت 2001 عدد 263
- 2- غربي علي وسلطنة بلقاسم وآخرون: تنمية المجتمع من التحديات إلى العولمة، دار الفجر للنشر والتوزيع، 2003
- 3- تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس: فلسفته وجهوده في التربية والتعليم. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969

4 Crystal, David : Language Death, Cambridge University Press 1999

5 Mackey, Francis-William: Bilinguisme et Contact des Langues, edition Kleinckseick; Paris 1976

6 Pioche Jacqueline et Marchello Nizia Christiane: Histoire de la Langue Française, Nathan Université 5eme édition Mars 1998